فصل في ذِكر الأمم الماضية والقرون الخالية

الأوَّل: في ذِكر الهِندِ وأنبائها وبُدوِّ ممالكها وآرائها[١]

قال الجوهريُّ: هندٌ وسِندٌ: اسمُ بلادٍ، والنِّسبةُ إليها: هِنديٌّ وسِنديٌّ[٢].

وذكر العلماءُ بأخبار العالم أنَّ الهندَ في قديم الزَّمان كانت الفِرقةَ التي يُنسَبُ إليها الصَّلاحُ والحكمة والخَيْرُ، فاستَضْعَفَهمُ الناس لطيب بلادهم وسَعَتها، وكثرةِ المال فيها.

وكان عندهم حكيمٌ قد فاق أهل عصره، يقال له: البرهمن[٣]، من وَلَد إبراهيم على ما قيل، فنَصَّبوه ملِكاً لهم، وسمَّوه: السُّلطانَ الأعظم، والإمامَ المقدَّم ـ وبعضُهم يقول: هو آدم ـ وإليه تُنسب البراهمةُ، فقام بالأمر أحسنَ قيام، وقرَّب الحكماءَ والعلماءَ، وبنى الهياكلَ، والهيكل الأعظمَ، ورصَّعه بالجواهر المُشْرِقة، وصوَّر فيه الأفلاكَ والبروجَ الاثنَي عشر، والنُّجومَ الثابتةَ والسَّيَّارةَ، وبَيَّن في الصُّور كيفيَّة العالَم وتأثيراتِ النَّيِّرَيْنِ، وأشار إلى واجب الوجود، وقرَّر في أذهان الخواصِّ معرفته، وأن نُورَه فائضٌ على خَلْقه، وصنَّف كتاباً سماه: «سِند هِند»، وتفسيره: دهر الدُّهور، ومنه تَفرَّعت كتبُ الحِكْمِيَّات مثل: المِجِسْطِي[٤] ونحوه، وعمل الزِّيجات، واستخرج الحروفَ التِّسعَةَ المحيطةَ بالحساب الهندي، وهو أولُ مَن أحدَث القَولَ بالأكرار[٥] والأدوار، وأن الأعمار في أوّل البُدُوِّ تَطولُ لسَعَة الدائرة، وتَقصُر عند قِصَرِها.

وتكلَّم على سير الشَّمس وأَوْجِها، وأنها تقطعُ الفَلَكَ في ستة وثلاثين ألف سنة، وتُقيم في كل برجٍ ثلاثة آلاف سنة، ومتى انتقلتْ إلى البُروج الجنوبية صار العامرُ

---

(١) انظر تاريخ اليعقوبي ١/ ٨٤، والملل والنحل ٢/ ٢٥٠، والبدء والتاريخ للمقدسي ٤/ ٩، وتحقيق ما للهند من مقولة ٤٥٢ وما بعدها، ومروج الذهب ١/ ١٤٨ وما بعدها.

(٢) الصحاح (سند) (هند).

(٣) ضبطه الزبيدي في شرح القاموس (برن): بكسر الموحدة وفتح الراء وسكون الهاء وفتح الميم. وانظر تهذيب اللغة ٦/ ٥٣٧، والعين ٤/ ١٣٠.

(٤) بكسر الميم والجيم وتخفيف الياء، انظر كشف الظنون ٤/ ١٥٩٤.

(٥) في النسخ: بالأكوار، والمثبت من مروج الذهب ١/ ١٥٢، ١٥٣.

خراباً، والخرابُ عامراً، وسَمَّى العالم في ابتداء كل ثمانية وسبعين[١] سنة: هازروان، وأَن العالم متى قطع هذه المدةَ عاد الكونُ والنَّسل. على حسب ما ذكرنا في الباب الماضي[٢]، وله في هذا كلامٌ طويلٌ، فانقادت له الهند وأطاعتْه.

وكان قد بنى بيتاً من ذَهَب يُجالس فيه الحكماءَ، فجمعهم يوماً وقال لهم: تعالَوْا ننظر في أمر هذا العالَم والسِّرِّ في إيجاده، وهل له غاية، وما وَجْهُ إعدامِنا بعد إيجادنا؟ فقال حكيم منهم: الواجبُ علينا أولاً أن نبتدئ بمعرفة نفوسِنا، التي هي أقربُ الأشياء إلينا منافعَ نعدُّها، فكيف بالمُبدِئ الأوّل؟ وقال آخر: لو تناهَتْ حكمةُ الخالق في أحد العقُول، كان نقصاً في الحكمة، ولكان الغرضُ غيرَ مُدرك، لأن البارئ تعالى لا بدايةَ له ولا نهاية. فقال البرهمن[٣]: ما أدري ما تقولون، غير أنا خرجنا إلى الدنيا مُضطرِّين، وعِشْنا فيها حائرين، ونخرجُ منها مُكرَهين، فأقَرُّوا له بالفضل.

وأقام فيهم البرهمن ثلاثَ مئةٍ وستّاً وستين سنةً، ثم مات، وجَزِعت الهندُ عليه.

وكان قد أوصى إلى ولده واسمُه: الباهبوذ.

فصل

فأقام فيهم على منهاج أبيه، وزاد في بناءِ الهياكل، وضاعف الإحسانَ إلى العلماء والحكماء، وزاد على أبيه بأن وَضَع أشياءَ منها: النَّرْدُ، وجُعِلت مثالاً للمكاسب، وأنها لا تُنالُ بالحِيل، وأن الرزق لا يَحصُل في هذه الدُّنيا بالحِذْقِ والاحتيال، بل بالأقدار، ورتَّب اثني عشرَ بيتاً بعدد الشُّهور، وجعل كِلابَه ثلاثين كلباً بعدد أيام الشَّهر، وجعل الفُصوصَ مثالاً للقَدَرِ[٤] وتقلُّبِه بأهل الدُّنيا، وأن الإنسان يُلْعبُ به، فيبلُغ بإسعادِ القَدر إياه ما يريد، وأن الحازمَ الفَطِنَ لا يَنتفع بحَزْمِه إذا لم يُساعده القَدرُ.

ويقال: إن أَرْدَشير بن بابك أولُ مَن وضَع النرد، وليس كذلك، وإنما وضعَه

(١) في مروج الذهب ١/ ١٥١: في كل سبعين ألف سنة.

(٢) انظر فصل البروج والشمس.

(٣) في مروج الذهب ١/ ١٥٦ أن الذي قال ذلك سابع الحكماء.

(٤) في مروج الذهب ١/ ١٥٨: ورأى تقلب الدنيا بأهلها وجعل بيوتها اثني عشر ... وجعل كلابها ثلاثين كلباً ... وجعل الفصين مثالاً للقدر.

الباهبُوذ، ومضى عليه زمان فدَثَر، فجدَّدَه أَرْدَشير، فأُضيفَ إليه، فقيل: نَرْدَشير.

وأولادُ البرهمن أشرافُ الهند وأكابرُهم، ولا يرون ذبحَ الحيوان، ومَن ذبح حيواناً ذبحوه، ولو كان دجاجةً، وفي أعناق النِّساء منهم والرِّجال خيوطٌ صُفْرٌ، يُعرفون بها، مثلُ الغِيار[١].

وأقام الباهبوذ فيهم مئةَ سنةٍ، ثم مات.

فصل

وملَّكوا بعده رجلاً يقال له: زامان[٢]، فأقام فيهم مئةً وخمسين سنة على سيرة مَنْ تقدَّمَه، ثم مات.

فصل

فملَّكوا عليهم رجلاً اسمه: فور[٣]، فقام بالمُلك أحسنَ قيام، ويقال: إنه الذي قتله الإسكندرُ اليوناني مبارزةً، وكان صاحبَ مدينة المانكير، وعاش مئةً وأربعين سنةً ولم يُجدِّدْ شيئاً من الحكم.

فصل

فولَّوا بعده رجلاً يقال له: دَبْشَلم، وكان فاضلاً، وضع شيئين:

أحدهما: كتاب «كليلة ودمنة» الذي نقله ابن المقفَّع من الهندية إلى العربية، وصنَّف سهل بن هارون للمأمون كتاباً على وَصْفِه وسماه: «ثُعْلَة وعُفْرة»[٤]، وهيهات، بينهما كما بين مصر والبصرة.

والثاني: الشِّطْرَنج[٥]، وحكم لها على النَّرد، وجعلها على وضع الحيوان ناطقٍ

---

(١) الغيار بالكسر: علامة أهل الذمة كالزنار ونحوه، القاموس المحيط (غير).

(٢) في النسخ: رامان، والمثبت من المسعودي ١/ ١٥٨.

(٣) في النسخ: بود، والمثبت من تاريخ اليعقوبي ١/ ٨٧، ومروج الذهب ١/ ١٥٨، وسيذكر المصنف في واقعات الاسكندر وقعة له مع ملك الصين واسمه بود.

(٤) انظر الفهرست ص ١٣٤.

(٥) ذكر اليعقوبي في تاريخه ١/ ٩٠، والمسعودي في مروج الذهب ١/ ١٥٩ أن الذي صنع الشطرنج واخترعها الملك بلهيت الذي ملك بعد دبشلم.

وصامتٍ، ومثَّل الشاه بالرئيس الأعظم، وما يليه من القطع على المراتب، وأقام ذلك أمثلةً للأجرام العُلوية من السَّبعة والاثني عشر، وجعل كلَّ قطعةٍ منها لكوكب، وهي تتضاعفُ إلى ألوف ألوف على حساب الهند.

وأقام دَبْشَلم في الملك مئةً وثمانين سنةً، ثم مات.

فصل

ومَلَك بعده كورش، فأحدث آراءً في الديانات، وعَدَل عن مذاهب البراهمة، وفي أيامه كان السِّنْدِباد، وله تصانيف ـ أعني السِّندباد ـ منها: كتاب «الوزراء السبعة»، وكتاب «معرفة العِلل والعلاجات»، و «أشكال الحشائش» وغيرها.

وأقام كورش مئةً وعشرين سنةً، ثم مات.

فصل

وافترقت الهندُ، وتحزَّبت الأحزابُ، وانفرد كلُّ واحد بناحية، فكان مُلْك الهند على الاجتماع ثمان مئة ونيفاً وخَمْسين سنة، ولما افترقوا، أطاعوا ملكاً من ولد البرهمن يقال له: البلهري، صاحب مدينة المانكير[1]، وملوك الهند يصلون إليه، وتحت يده ملوك كثيرة، وكلُّهم مآلهم إلى ولد البرهمن لا ينتقل عنهم إلى غيرهم، وكذا بيوت الوزراء والكبراء والقضاة معروفة لا يتعدَّونَ إلى غيرها.

والهندُ بلاد واسعة برًّا وبحراً، والبحرُ أعظم، وهي من ناحية الشَّرق متصلةٌ بالصين والزابج[2] والمهراج والقِمار، وحدُّها من الغرب ما وراءَ النَّهر بأربعين يوماً.

ولا يُملِّكون عليهم رجلاً حتى يَبلُغَ أربعين سنة، ويقولون: هي منتهى كمال العقل وقوّة النظر.

ولا يَظهَرُ المَلِكُ للعوام إلا في وقت معلوم، ويكون ظهوره بسبب النظر في أمور

(١) في النسخ: المناكير، والمثبت من مروج الذهب ١/ ١٦٢.

(٢) في النسخ والروض المعطار ص٢٦٦ ونزهة المشتاق ١/ ٦١: الرانج (بنون بعد الألف)، والمثبت من مروج الذهب ١/ ١٦٣، ومعجم البلدان ٣/ ١٢٤. قال ياقوت: بعد الألف باء موحدة تفتح وتكسر وآخره جيم، جزيرة في أقصى بلاد الهند.

الرعية، ويقولون: نظرُ العوامِّ إلى الملك يَخرِقُ الهيبة، وفيه استخفافٌ بالمملكة.

وآراءُ الهند تختلف: منهم مَن يقول بتناسُخ الأرواح، ومنهم طائفة لا يشربون الخَمْرَ ويقولون: إنه يُفسِدُ العقل، ومتى شَرِب عندهم ملكٌ خَلَعوه، ويقولون: هو حارس، فمتى فَقَد عقله انتبه اللصوص.

واتفقوا على سَماع الملاهي، قالوا: لأنها تزيدُ في العقل.

وإذا مات الملك جعلوه على عَجَلةٍ وتحتها بَكَرة، وشَعرُه ينجرُّ على الأرض، وامرأة بيدها مِكنَسة تحثو التراب على رأسه، وهم يَجُرُّونه، والمرأة تقول: أيها الناس، هذا ملككم بالأمس، وقد جرى فيكم حكمُه، وقد صار إلى ما ترون من فِراق الدنيا، فلا تَغتَرُّوا بها. ثم يُطافُ به في شوارع البلد، ويُطلى بالكافور والطِّيب، ويجمعون بين يديه الملاهي، وخواصُّه وأهلُه مُحدِقُون به، ويأتون به إلى الهيكل الأعظم عندهم، وفيه هُوَّةٌ عظيمة فيها نار، يَزعُمون أنَّها نار الخليل عليه السلام، تُوقَد دائماً بخشب الزيتون لا تَفْتُر، وعليها الكراسي تحت المَوابِذَة: وهم العلماءُ، ومُوبَذ مُوبَذان ـ وهو عالمُ العلماء عندهم ـ جالسٌ على كرسي من ذهب ـ والهند يَعبُدون هذه النار ـ فإذا جاؤوا بالملك قام المُوبَذ والمَوابِذة، ويأتون بالملك إلى بين يديه، فَيُزمْزِمُ عليه ساعةً[1]، ثم يأمر بارتفاع أصوات الملاهي جُملةً، ثم يُقذَف بالملك في النار، فيشير المُوبَذ إلى خواصِّه وأهله فيتهافَتُون في النار على حسب منازلهم عند الملك.

وقال ابن المقفَّع: الهند يُعذِّبون أنفسَهم بأنواع العذاب، يتقرَّبون بأرواحهم إلى بارئهم.

قلت: وقد حكى لي جماعةٌ من التُّجار الذين يَدخُلون الهند، أنهم شاهدوا الملوك وقد فَعلوا بهم ما ذكرنا.

وحكى لي جماعة أن ببلاد المانكير جبلاً شامخاً، وله جانب أملسُ من أعلاه إلى الأرض على أسلوب واحد، وفي وسطه شجرةٌ ناتِئة شاهقةٌ كثيرةُ الأغصان قد ألبسوها الأسنَّةَ، ولهم عيدٌ في السنة يجتمعون فيه على رأس الجبل، ومعهم الملاهي والطبول

(١) يصوّت بصوت مبهم يديره في خيشومه وحلقه لا يحرك فيه لساناً ولا شفة. المعجم الوسيط.

والبُوقات، فيضربون بها، وتجتمع الشباب وأولو البأس والقوة فيرقصون، ثم يتهافتون من أعلى الجبل إلى الشجرة، فتَلَقَّاهُم الأَسنَّةُ، منهم مَن يَدخُل السِّنانُ في جنبه فيخرج من الجنب الآخر، وتارةً يقع في عينه أو في بطنه، فإن مات وإلا بقي على حاله معلَّقاً حتى يموتَ ويَبْلَى ويتقطَّع ولا يدفنوه.

وحكى شيخٌ من أهل بغداد قال: خرجتُ وأنا يومئذٍ ببعض بلاد الهند إلى ظاهر البلد، أتنزَّه بين البساتين؛ وإذا بشابٍّ قد رَبَط عجوزاً إلى شجرة، وجمع لها حطباً، فقلتُ: مَن هذه منك ؟ قال: أُمِّي. قلت: وما تصنعُ بها؟ قال: أحرقها. قلت: ولِمَ؟ قال: قد ضَجِرتُ منها، وأريد أن أقرِّبَها. قال: فقلت لها: أَوَتُحبِّين هذا؟ قالت: نعم، أمضي إلى هناك، وأشارت إلى السماء، فأَحْرَقَها.

قلت: فانظُروا إلى هذه العقول التي كادها بارئها، فكيف تتعبَّدُ بإتلاف النفوس التي يُستَدلُّ بها على صنعة مُنشئها؟! وأين هذا من الحِكَم التي يَمنُّون بها على جميع الأمم؟ فسبحان مَن أظهر فيهم أسرارَ حكمته، وعجائبَ قُدرته، وكم لهم من مَثَلٍ سائر، ولفظٍ أحسنَ من اللآلئ والجواهر! فنذكر طرفاً من ذلك.

فصل

ذكر العلماءُ بأخبار العالم فنوناً من كلامهم وأخباراً من[1] أيامهم

فمنه قول وزير البرهمن: الملكُ العاقل يزدادُ برأي الوزير الحازم زيادة البحر بموادّه من الأنهار، ويَنالُ بالحَزْمِ ما لا ينال بالقُوَّة والاستظهار، وقال: المستشيرُ وإن كان أفضلَ من المُشير، فإنه يَزدادُ برأيه رأياً، كما تزدادُ النارُ بالسَّليط[2] ضياءً.

وقال حكيم آخر: إذا أحدَثَ لك العدوُّ صداقةً لعِلَّةٍ ألجأتْهُ إليك، فمع ذهاب العلَّة ترجِعُ العداوة، كالماءِ فإنك تُسَخِّنُه، فإذا أمسكتَ عنه رجع إلى الأصل بارداً.

قلت: أخذه شاعر فقال: [من المتقارب]

---

(١) في (خ) و (ك): وأخبار أمر.

(٢) السليط: الزيت. (القاموس المحيط)، والقول في الأدب الصغير لابن المقفع ص٣٢ (رسائل البلغاء)، وعيون الأخبار ١/ ٢٧ـ٢٨.

وكُـلٌّ إلـى طـبـعِـه عـائـدٌ وإن صـدَّه الـصّـدُّ عـن قَـصْـدِهِ
كـمـا الـمـاء مـن بـعـد إسْـخـانِـه يـعـودُ سـريـعـاً إلـى بَـرْدِهِ

وأحسنُ من هذا، قولُ بعض عوامِّ بغداد في كان وكان[1]:

الشوك لو سقيته يحمل ما ورد عرق مايرجع إلا إلى أصله ويحمل الخرنوب

وقال آخر: أجودُ الناس من جاد عن قلَّة.

أخذه حمّاد عَجْرد فقال من أبيات: [من البسيط]

بُـتَّ الـنَّـوالَ ولا يَـمـنَـعْـكَ قِـلَّـتُـه فـكـلُّ مـا سـدَّ فَـقْـراً فَـهْـو مـحـمـودُ
إذا تـكـرَّمْـتَ عـن بَـذْلِ الـقـلـيـل ولـم تَـقـدِرْ عـلـى سَـعَـةٍ لـم يَـظـهَـرِ الـجـودُ
إن الـكـريـمَ لَـيُـخـفـي عـنـك عُـسْـرتَـه حـتـى تَـراه غـنِـيَّـاً وَهْـوَ مَـجْـهـودُ
ولـلـبـخـيـلِ عـلـى أمـوالِـه عِـلَـلٌ زُرْقُ الـعـيـونِ عـلـيـهـا أوجُـهٌ سُـودُ[2]

وقال آخر: إنَّ ذا المروءة لَيكونُ خامِلَ الذِّكْر، فتأبى له مروءتُه إلا أن يَستَعليَ؛ كالشُّعلة من النار يصونُها صاحبها وهي تأبى إلا ارتفاعاً، وإن ذا الفضائل لا يَخْفَى فَضْلُه وإنْ أخفاه، كالمِسك يُخفيه صاحبُه فلا يمنَعُه ذلك أن يفوح ريحُه.

وقال آخر: لا ينبغي للعاقل أن يُرى إلا في مكانين: إمّا معَ الملوك مكرَّماً، وإما مع العُبَّاد مُتبتِّلاً[3].

ومن أمثال الهند في الدُّنيا وآفاتِها، قالوا: مَثَلُ الإنسان المغرور بالدنيا، مثلُ رجل ألجأه الخوفُ إلى بئر، فتدلَّى فيها، وتعلَّق بغُصْنَيْن نابتَيْن على شفير البئر، فوقعَتْ رِجلاه على شيء، فنظر فإذا أربعُ حياتٍ قد أطلَعْنَ رؤوسهنَّ من حُجرتهنَّ، ونظر أسفلَ

(١) في حاشية (ك): قول المصنف رحمه الله إن البيت من كان وكان أحسن من البيتين، يدل على عدم ذوقه وإنصافه، بل البيتين نادرين (كذا). اهـ. قلت: وكان كان، نوع من الشعر الشعبي، شاع بين البغداديين في عصور متأخرة، وقد سمي بهذا الاسم لأن الشعراء كانوا يجعلون في شعرهم «كان وكان» للدلالة على أن ما يقولون هو روايات لا أصل لها، وقد تحلل ناظموه من بعض قواعد الإعراب وقيود القافية. معجم مصطلحات العروض والقافية ص٢٢٧.

(٢) الأبيات بترتيب آخر في الشعر والشعراء ٢/ ٧٧٩ـ٧٨٠، وعيون الأخبار ٣/ ١٧٨، وطبقات ابن المعتز ص٦٩ـ٧٠، ووفيات الأعيان ٢/ ٢١٣.

(٣) القول في يتيمة السلطان لابن المقفع ص١٥٦ (رسائل البلغاء).

البئر، فإذا ثعبانٌ عظيم قد فَغَر فاهُ نحوه، فرفع عينه إلى الغُصنين اللَّذين تعلَّق بهما، وإذا في أصلهما جُرْذانِ: أبيض وأسود؛ يَقرِضان الغصنَيْن دائبَيْن لا يَفتُران. فبينما هو يُعمِلُ الحيلةَ، يتخلَّص مما وقع فيه، إذ حانَتْ منه التفاتةٌ، فإذا بنحلٍ قد عشَّش في جانب البئر، فمدَّ يده إلى عُشِّه، فأخذ من العسل، فلَعِقَه فوجده حُلْواً، فشَغَله عن الفكر في أمره، والتماسِ النَّجاة لنفسه، ونَسي أنَّ رجليه على أربع حيَّاتٍ لا يَدري متى تُساوِرُهُ إحداهُنَّ، وأنَّ الجُرذين دائبان في قَرْض الغُصنَيْن، وأنهما متى قَطَعا ذلك وقع في البئر، فالتقمه التِّنِّينُ. فلم يزل مشغولاً بلَعْق العسل حتى قَرَض الجُرذان أصل الغُصنَيْن، فسقط في البئر، فالتقمه التنّين.

فالدنيا هي البئر، والغُصنان الأمل، والطمعُ هو العَسَل، والجُرذان: الأبيضُ النهار، والأسودُ الليل، يقرضان العمر لا يفتران، والحياتُ الأربع: الأخلاط التي بُني عليها الجسدُ: وهي: البَلغم، والمِرَّةُ الصَّفراء والسوداء، والدمُ، والتِّنِّينُ الذي في أسفل البئر مَلَكُ الموت، واليسير من العسل لذاتُ الدنيا تُلهيه عن عاقبة ما يَؤولُ إليه أمرُه[1].

واقعة جرت بالهند

حكى العلماءُ بأخبار الأوائل أنه كان بالهند ملكُ المِهْراج، وكان عظيماً يَركَبُ في ثلاث مئة ألفٍ، وكان مجاوره ملك القِمار، فحسد ملكُ القمار ملك المهراج، فقال لوزيره يوماً: في نفسي أمرٌ أحبُّ بلوغَه قبل موتي. فقال له الوزير: وما هو؟ قال: أرى رأسَ ملك المهراج في طَشْت بين يديَّ، فشَقَّ على الوزير وقال: أيُّها الملكُ، وما الذي بدا من ملك المهراج إلينا ما يَستوجبُ به ما خَطَر في نفسك؟! ووالله إنه نِعم الجار، وكان بين المملكتين مِقدارُ عشرين يوماً في البحر، وكان الوزيرُ صالحاً ناصحاً، فقال: أُعيذُك بالله أن يَخطُرَ هذا ببالك، فضلاً عن أن يَشِيعَ عنك. فغضب عليه، وتحدَّث مع غير الوزير بذلك.

وبلغ ملكَ المهراج ما جرى لملك القمار مع وزيره، وكان ملكُ المهراج رجلاً

(١) انظر يتيمة السلطان لابن المقفع ص١٦٨ (رسائل البلغاء).

عاقلاً ثابتاً، فقال لوزيره: قد بدا من ملك القمار كذا وكذا، ولا ينبغي أن نسكت عن هذا الجاهل، بعد أن شاع عنه هذا، فإنه قَدْحٌ في المُلك.

ثم تجهَّز وأظهر أنه يقصد بلداً سمَّاه، وسار في ألوف مراكب، وطابت له الريحُ، فما شعر ملك القمار به إلا وقد بغته، فحاصره في بلده، وانهزم أصحابُه، فأخذه أسيراً، وأحضره وأحضر الوزير، وقال للملك: ما الذي حملك على تمنِّي ما ليس في وُسعِك، ولا أوجبه سببٌ من الأسباب؟ فلم يُحِرْ جواباً. فقال له ملك المهراج: أما إنك لو تَمنَّيت ما تمنيت من أن ترى رأسي بين يديك لتأخذ مُلكي، لاعتمدتُ ذلك فيك، ولكنك تمنَّيت شيئاً بعينه، فأنا فاعلُه بك وراجعٌ إلى بلادي من غير أن أمدَّ يدي إلى شيءٍ من بلادك، لتكونَ عِظَةً لمَن بعدك، فلا يتجاوز قدره.

ثم ضرب عنقه، وجعل رأسه في طَشْتٍ بين يديه، ثم أقبل على الوزير فقال: وأما أنت، فجُزيت خيراً من وزيرٍ، فقد صَحَّ عندي أنك أشرت عليه بالرأي لو قبل منك، فانظر مَن يَصلحُ للملك بعد هذا الشقي فولِّه. ثم نزل من ساعته إلى المراكب، وسار إلى بلاده، ولم يَمَسَّ شيئاً من المملكة لا هو ولا أصحابُه.

ولما عاد إلى بلاده جلس على سريره، ووضع رأس ملك القمار بين يديه في طشتٍ، وجمع أرباب دولته وخواصَّه، وعرَّفهم بالقصَّة، فعَظُم في عيونهم ودعوا له.

ثم ردَّ الرأسَ إلى القمار، وكتب معه: رُدُّوا رأسَ صاحبكم إلى جسده، فإنَّ الذي حملَنا على ما فعلنا به بَغيُه علينا، فأدَّبْنا أمثالَه، وبلَغْنا فيه ما رامه فينا من غير سببٍ نستحقُّ به إلا حُسنَ جواره، ورأينا ردَّ رأسه إلى جسده، إذ لا فخر لنا في تركه عندنا.

وبلغ ملوكَ الصين ما فعل، فصاروا كل يوم عند طلوع الشمس يسجدون نحو المهراج تعظيماً له[1].

(١) في مروج الذهب ١/ ١٧٥ أن الذي فعل ذلك هم ملوك القمار لا ملوك الصين.